تومبوكتو

مدينة ساحرة ومركز ثقافي مغمور

< االدار البيضاء _
نور الدين سعودي

في هذه المدينة الأسطورية تراث ثقافي إسلامي غني ظل طيلة قرون مدفونا في ثنايا كثبانها الرملية وهو اليوم يخرج إلى النور كاشفا عن خبايا تاريخها المجيد والدور البارز للإسلام في صنع أهم حلقاته. غير أن المخطوطات معرضة للتلف والسرقة مما يهدد ذاكرة هذه المدينة والمنطقة.

خلال زيارتي منذ عامين لمدينة زاكورة بالجنوب الشرقي المغربي، أثار انتباهي وفضولي وجود لوحة كبيرة منتصبة في أحد أبواب المدينة كتب عليها: "تومبوكتو: 52 يوما". وعادت بي ذاكرتي إلى ما قرأته عن هذه المدينة الساحرة ذات الأمجاد خلال انتشار الإسلام في غرب القارة الإفريقية. ومما استحضرته أن هذه المنطقة هي مهد الدولة السعدية التي حكمت المغرب خلال القرن 16 وبداية القرن17 ميلادي، وامتد نفوذها حتى تومبوكتو في مالي. وقد كانت زاكورة عبر القرون الخوالي محطة مهمة في طريق القوافل التجارية بين مراكش وتومبوكتو.

ويذكر التاريخ العربي الإسلامي أن الرحالة الشهير ابن بطوطة قام في ما بين 753هـ/1352م و755هـ/ 1354م برحلته الثالثة إلى بلاد السودان حيث زار خلالها مدينة تومبوكتو. كما يذكر أن الرحالة والمؤرخ المغربي "الحسن الوزان" الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي قد قام بأول مهمة سياسية مكلفاً من قبل سلطان المغرب الوطاسي لإبرام عقد التحالف مع " إمارة السعديين" الناشئة آنذاك والمناهضة للبرتغاليين المحتلين وركز جهوده لتوحيد الصف ضد المتآمرين المحليين. وبعد عامين أوفده السلطان الوطاسي مع عمه إلى بلاد السودان حيث تباحث مع ملك "سونغاي" الذي كان قد توسع حكمه واحتل مدينة تومبوكتو. وقد بهرت هذه المدينة العصية أيضا المكتشفين الغربيين، من الأسكتلندي مونغو بارك إلى الفرنسي رينه كاييه والألماني هنريخ بارت.

طبيعة
Nature

وكانت نقطة التقاطع التجارية هذه في زمن القوافل مركزاً لنشاط فكري وديني كبير. وقد ألفت خلال ذلك العصر الذهبي آلاف الكتب والمخطوطات التي، مع إخراجها مؤخرا من ليل النسيان، كشفت عن فصول هامة من تاريخ هذه المنطقة الإفريقية، وبالخصوص دور الإسلام في نشر الثقافة وازدهار التجارة.

الموقع والنشأة

تومبوكتو مدينة عجيبة تقع في وسط دولة مالي الحالية، التي هي إحدى أكبر دول قارة إفريقية، حيث تبلغ مساحتها مليونًا وربع مليون كيلو متر مربع. وهي دولة لا تشرف على سواحل، وهذا الاتساع المساحي جعل أرض مالي تضم الكثير من المجموعات البشرية أشهرها "الماندينج" و"السونغاي" و"الفولاني" وكلها قبائل مسلمة، كما وُجد على أرض مالي قبائل "الطوارق" وهم بقايا المرابطين الذين حكموا المغرب والأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين (القرنين 11 و12 الميلاديين) وإليهم يرجع الفضل الأول في نشر الإسلام في هذه البقاع الصحراوية. ويذكر أن الطوارق كانوا يعيشون ناحية الشمال حول مدينة تومبوكتو القريبة من نهر النيجر.

مع بداية القرن الثاني عشر ميلادي، تمركزت قبيلة الطوارق على ضفاف بئر كان يسمى "تيم-بوكتو" أي بئر بوكتو، نسبة إلى اسم حارسة البئر. وبعد حوالي قرنين تحولت تومبوكتو من مجرد نقطة استراحة بسيطة للقبائل الرحل، إلى مركز تجاري مهم تتدفق إليه وتروج من خلاله شتى المنتجات المحلية من ألواح الملح المستخرجة من مناجم الصحارى، إلى منتجات السفانا والغابات. ومن هناك كانت تنطلق العربات الضخمة المحملة بالمواشي إلى مصر، والمحملة بالذهب والعاج والجلد إلى المغرب.

ومن أسباب ازدهار هذه المدينة أن بائعي مدينة دجيني، التي كانت تجتذب منتجات الجنوب وتحتاج إلى نقطة لتصريف منتجاتها نحو الشمال، قاموا باستعمال مجرى نهر النيجر، وصولاً إلى تومبوكتو التي

سباق الجمال في الصحراء

Camel race in the desert

سباق الجمال في الصحراء

Camel race in the desert

جعلوها مرفأ مهماً، والنقطة الأقرب إلى الضفة المقابلة للنهر.

وعندما عاد الإمبراطور الكبير كنكان مانسا نحو عام 1325 ميلادية من حجه إلى مكة المكرمة، دفعته الذكرى المذهلة التي كان يحتفظ بها عن القاهرة والمدن التي زارها إلى إعمار تومبوكتو، فبنى مسكناً وجامعاً معتمدا على مهندس مسلم من أصل إسباني الذي وضع أصول العمارة في هذه المدينة. وبذلك بدأت العصور الذهبية للمدينة المنبثقة من الرمال، حيث تضافرت حركة التجارة المزدهرة مع الأنشطة الثقافية والدينية لازدهارها. وقد أصبحت المدينة قبلة لطالبي علوم الفقه والآداب، إذ يذكر المؤرخ والرحالة المغربي حسن الوزان وجود 120 ألف طالب و180 مدرسة قرآنية في مدينة كانت تعد في أوجها، في القرن السادس عشر، 100 ألف نسمة.

وقال محمود كاتي، كاتب "تاريخ السودان"، الذي ألفه في القرن السادس عشر: "تومبوكتو، وصلت إلى الحد النهائي من الجمال والروعة، وكانت الديانة المزدهرة فيها والتقاليد النبوية تعطي الحياة لكل شيء."

ومما كتبه الباحث الفرنسي رونيه كاييه عند

منتجات حديثة في بلاد قديمة Modern products in an old land

أطفال محليون Local children

وصوله إلى تومبوكتو عام 1828: "كان بإمكان عبيد تومبوكتو قراءة القرآن، حتى أنهم حفظوه غيباً، فهم يعلّمونه إلى أولادهم منذ نعومة أظفارهم." وأضاف: سعربة الملح للجمالين الطوارق ما زالت تنزل مرة في السنة من تاودانيك وما زال المرفأ المتصل بنهر النيجر، بقناة حفرتها يد الإنسان، ينزل القوارب المحملة بالبضائع الآتية من الجنوب. طبعاً لم تعد التجارة في تومبوكتو كما كانت، وتحولت الصحارى إلى بحر عدائي، وضرب الجفاف أراضي الساحل بقوة. لكن فكر تومبوكتو وإيمانها، وفخرها بكونها "الحي اللاتيني" لبلاد السودان، ما زالت تطبع بآثارها الناس والأحجار. ها هي الطرق التي مر عليها المصلون في اتجاه مسجد دجينغربر قائمة وكذلك المسجد الذي ما زال صامداً منذ أن أنشأه كانكان مانسا في القرن الرابع عشر. إنه صرح واسع مبني من ألبا نكو والحجارة. أبراجه مخروطية وشرفاته الرائعة ما زالت تستقبل المؤمنين داخل صحونها الإثنى عشرة. وفي الجهة المقابلة للمدينة، مسجد سانكوري الذي تؤكد التقاليد أن محيط أبنيته يساوي محيط الكعبة في مكة المكرمة، وهو يلقي بظله على الشرفات المحيطة. وها هو جامع سيدي يحيى المبني في نهاية القرن الخامس عشر صامد، يحميه باب قديم مصفح بالحديد. وهو من أحد أبواب الطراز الهندسي لبيوت تومبوكتو. طرق تومبوكتو نظيفة وواسعة إلى درجة تسمح بمرور ثلاثة خيالة معاً. في الداخل والخارج الكثير من الأكواخ مصنوعة من القش بشكل دائري تقريباً."

ذاكرة المنطقة في مهب الريح

خلال السنوات الأخيرة، تم في تومبوكتو الاكتشاف التدريجي لمخطوطات قديمة يرجع تاريخ بعضها إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وقد جرى تحقيق وتصنيف أكثر من 15 ألف وثيقة بإشراف منظمة اليونسكو، في حين لا يزال 8 آلاف غيرها نائمة في خزائن أو مخابئ هذه المدينة الأسطورية. إن هذه الكتابات الثمينة التي تحتوي على معطيات حول الماضي المجيد لمنطقة وادي نهر النيجر بين القرن الثالث عشر والقرن التاسع عشر، مهددة بالتلف والسرقة على أيدي المهربين. ويلاحظ أن مؤلفات نادرة جداً مكتوبة بالعربية وأحياناً بالفولانية على يد علماء من مملكة مالي القديمة تمر عبر سويسرا، حيث تتم عملية تمويهها ثم عرضها على جامعي التحف النادرة الذين يتسابقون عليها. ولا يخفي السيد علي ولد سيدي قلقه وهو رئيس البعثة الثقافية في تومبوكتو، بقوله:" يجب التعرف على الوثائق التي يملكها الأهالي ومن ثم حفظها وترميمها، وإلا فإن ذاكرة تومبوكتو المكتوبة سوف تضيع. وهي ذاكرة لا أحد يدرك أهميتها".

ومما تم الكشف عنه أن تومبوكتو فرضت نفسها ابتداء من القرن الرابع عشر كمركز تجاري رئيسي بين السودان القديم والمغرب، تمر عبرها أملاح تاوديني وذهب مناجم بوري وعبيد غانا، يتجاور فيها التجار العرب والفرس مع الرحالة والفلاسفة المسلمين الساعين لدعوة السكان المحليين إلى دين الله. إنها الحقبة التي كانت تنقسم فيها إفريقيا الساحلية بين الإمبراطوريات المعتنقة للإسلام، مثل سشونغاى" التي حكمت مالي في أواخر القرن الرابع عشر، وغيرها ممن امتنعوا عن الدخول في الإسلام، مثل سموسيس" (بوركينا فاسو حاليا). هكذا ارتبط انتشار المخطوطات بالتقدم الحاصل في نشر الدين الإسلامي الحنيف.

وتحولت مدن المنطقة الثلاث الكبرى، أي تومبوكتو وجاو ودجنة، إلى مراكز لغليان ثقافي إسلامي لا تزال ذاكرته حية، ففي القرن الخامس عشر كان عدد سكان تومبوكتو 100 ألف (بينما تراجع اليوم إلى 30 ألفاً). وكان منهم 25 ألفاً من الطلاب الذين يرتادون جامعة سانكورة التي تحولت إلى مسجد. وكان الطلاب يخطون محاضرات العلماء المسلمين على قشور الشجر وعظام أكتاف الجمال وجلود المواشي، أو على ورق مستورد من الشرق. وهكذا تكون على مر القرون مخزون ثمين فلسفي وقانوني وديني.

إضافة إلى ذلك، تحتوي حواشي هذه المخطوطات على معرفة تعليمية يمتزج فيها دون ترتيب مسار الكواكب بأوزان الآلات الموسيقية وأسعار الحرائر بثمن جوز الكولا. أما القوافل المتنقلة بين اغاديز في النيجر وتيشيت في موريتانيا مروراً بسوكوتو في

شمال نيجيريا، فكانت تحمل العديد من المعلومات الخاصة بالتجار المستنيرين. وطوال ما يقارب الثلاثة قرون ساهمت كل من المعرفة والتجارة في إثراء بعضهما البعض. إن هذه الكنوز الثقافية والدينية والعلمية غير المسبوقة، تفند بشكل قاطع الأطروحة التي روجها الاستعمار وبعض أتباعه حول سيادة الثقافة الشفهية في إفريقيا جنوب الصحراء.

هكذا، وفي قلب تومبوكتو، في مركز أحمد بابا للتوثيق والأبحاث الذي أنشأته الحكومة المالية بمبادرة من اليونسكو عام 1970م، يدور فصل رئيسي من فصول استعادة التاريخ الإفريقي. ومهمة المركز تصنيف المخطوطات التي يتم العثور عليها وحمايتها وترميمها، فالورق مادة هشة يخشى عليه من الرطوبة والنار، فهو ينكسر ويجف ويتمزق لينتهي رمادا. يوضح الشيخ عمر سيسوكو، وزير الثقافة: "إذا كنا غير قادرين على استرجاع كامل هذه المخطوطات، فإننا نشجع على قيام مؤسسات خاصة تسمح باستعادة سريعة للمحفوظات العائلية. وهذا أفضل سبيل لتحميل المواطنين المسؤولية وحماية هذا الكنز في الوقت نفسه." وذلك لأن القسم الأكبر من هذه المخطوطات السرية ملك لأفراد.

ويكفي للتعرف على محتواها التقرب من العائلات التي ترحب بك أجمل ترحيب، كالسيد إسماعيل ديادة حيدارا، وهو من سلالة كاتي الذي يقول عن مؤسسته القائمة في جوار مسجد جينجيربر في دار قديمة أعيد ترميمها في تومبوكتو: "بدأ جمع هذه المخطوطات مع الهجرة القسرية لأحد أجدادي من أصل الفيزيغوت اعتنق الإسلام واسمه علي بن زياد القوتي، من طليطلة عام 1468م، ليقيم في غامبو في بلاد سوننكة. ومن ذلك التاريخ بدأت تتراكم المخطوطات جيلاً بعد جيل من الكاتي أسلافي. وقررنا إخراجها إلى النور عام 1999م".

وتضم هذه المكتبة خلاصة للمعارف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر: مؤلفات في أصول الحكم، نصوص حول مضار التبغ ووصف للأدوية والعلاجات، مؤلفات في القانون والفقه واللغة والرياضيات، مع تعليقات وحواش من علماء قرطبة وبغداد أو جنة. وفوق رفوف مسيجة بقضبان الحديد ومحمية من غبار الرمل الضار، تصطف فتاوى شرعية حول معاملة اليهود والمسيحيين في تومبوكتو، مما يدل على النشاط التجاري الكثيف في تلك الحقبة. بيع العبيد وتحريرهم، أسعار الملح والتوابل والذهب والريش، كلها مواضيع كانت تشغل بال كتبة الرقائق المرصوفة إلى جانب مراسلات الملوك على جانبي الصحراء المزدانة بمنمنمات مذهبة.

لا انسجام بين هذه النصوص، والسبب أنه إذا كانت غالبيتها العظمى بالعربية، فكل ناسخ كان يعتمد في تقليده (حسب اللغات المحلية) على قاعدة خط مستوحى من الخط المغربي. وبفضل بعض المترجمين المعاصرين، تطفو جدارية إفريقية من جديد على سطح التاريخ.

إن أهمية بعض هذه الوثائق واضحة لاسيما تلك العائدة إلى "تاريخ السودان" لمحمود كاتي (القرن الخامس عشر) والذي يستعيد سلالة زعماء تومبوكتو و"تاريخ الفتاش" لعبد

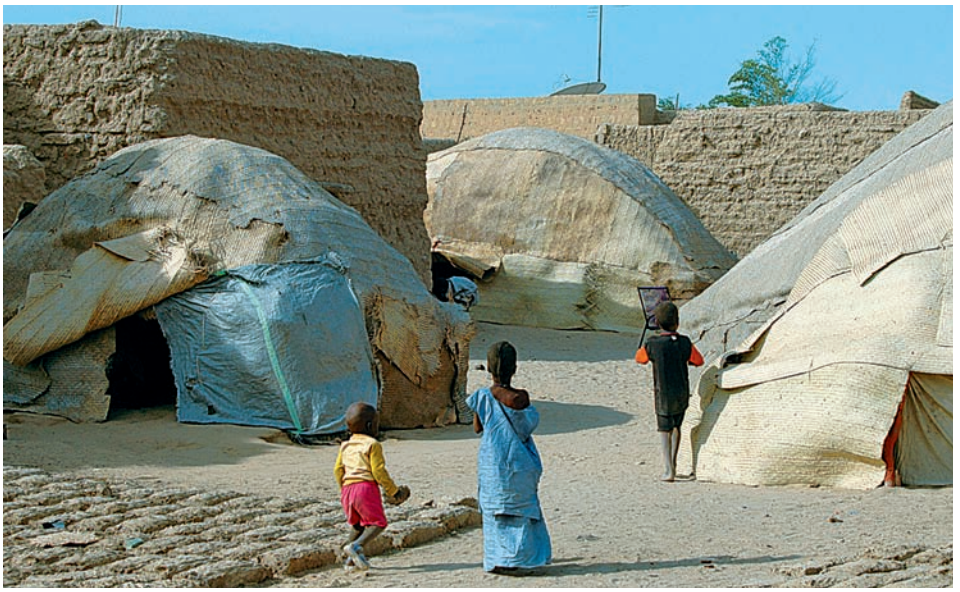

بيوت محلية
Local dwellings

راعي
Shepherd

الرحمن السعدي من القرن السابع عشر الذي يؤرخ للسودان في القرون الوسطى. إن اكتشاف هذه المخطوطات يعطي إفريقيا جنوب الصحراء الأساس التاريخي الذي أنكر طويلاً عليها والذي بدأت تظهر أهميته. وتؤكد هذه المخطوطات في نوع من رجع الصدى لأعمال المؤرخ السنغالي الكبير شيخ سانتا ديوب". العمق الروحي لإفريقيا ما قبل الاستعمار. كما تدل على أن ثروة هذه المنطقة قامت على دينامية تجارية ما بين القبائل والتي أطلقها الإسلام وولدها العلماء من خلال قدرتهم على التعليم الجماهيري.

ونتج عن ذلك نوع من التواصل الثقافي ترسخ من خلاله البعد الصوفي على ميراث متفاوت الحضور حتى وصول البرتغاليين في القرن الخامس عشر. وفي مذكراته يؤكد شيخ "دان فوديو" (1754–1817م) المستلهم من أسلافه، وخصوصاً من أحمد بابا، أنه وحتى وصول الأوروبيين كان الفكر الإفريقي يبلور حباً للإسلام المنفتح على العالمية. وقد تأكدت هذه الخلاصة في مطلع القرن العشرين.

ومن جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن تومبوكتو أصبح لها طراز خاص بها يعطي المدينة وحدتها، بما فيها الأبنية الأكثر حداثة والمنازل التراثية القديمة والساحات الخفية الداخلية. وتتميز مساجد تومبوكتو هناك بظاهرة خاصة وهي أن جدران المئذنة مسلحة بعوارض خشبية تستعمل عند الضرورة سلماً يصعد عليه من يريد ترميم المئذنة، وتطلى الجدران بطبقة سميكة من مادة تقيها من أثر الأمطار. وهناك سور يحيط بالمسجد وبباحته المستديرة، وداخل المسجد يخلو من التزيينات، ويسود الظلام فيه لكثرة الدعامات. أما أبواب المساجد فهي مصنوعة من خشب شجر الفروماجه الذي يكثر في المناطق الاستوائية. وإلى جانب المحراب يقوم المنبر، وهو دكة مرتفعة، ويتواجد المصلون عن يمينه وشماله. وهناك رواق خاص للنسوة المصليات. وليس في المساجد الجامعة مكان للوضوء، لأن الإفريقي عادة يحضر إلى المسجد متوضئاً.

وأخيرا، نأمل أن تتضافر الجهود المحلية والإسلامية والدولية لإنقاذ مخطوطات تومبوكتو الثمينة التي من شأنها الحفاظ على ذاكرة هذه المدينة الأسطورة وعلى تراثها الإسلامي الغني.

في انتظار ذلك، تومبوكتو بمخزونها الثقافي والتراثي والديني المثير، وبمعالمها العمرانية البسيطة والمتفردة، ومساجدها المتميزة التي كلها تؤمن استمرار الماضي، وكذا بطبيعتها الصحراوية، تستحق بحق أن يزورها السياح، لاسيما المسلمين الغيورين على التراث الإسلامي. ■

تاكسي للصحراء Taxi in the desert

فن فطري Primitive art